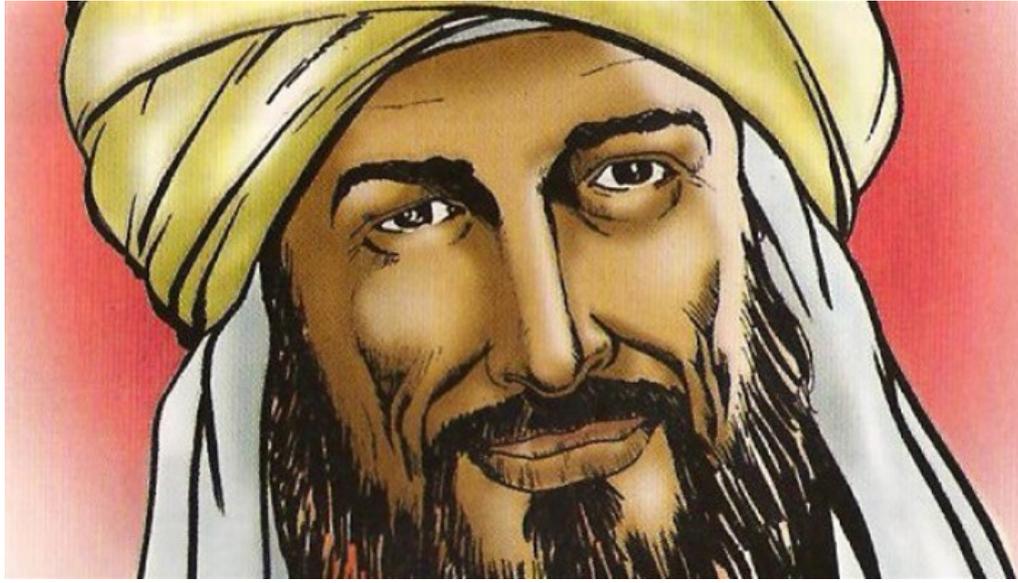


عظماء الإسلام: الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ



الأربعاء 14 يونيو 2017 02:06 م

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ المطَّلبيّ القرشيّ (150-204هـ / 767-820م) هو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفقه، وهو أيضاً إمام في علم التفسير وعلم الحديث، وقد عمل قاضياً فُعُرف بالعدل والذكاء وإضافةً إلى العلوم الدينية، كان الشافعي فصيحاً شاعراً، ورامياً ماهراً، ورخّالاً مسافراً أكثر العلماء من الثناء عليه، حتى قال فيه الإمام أحمد: «كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس»، وقيل أنه هو إمام قريش الذي ذكره النبي محمد بقوله: «عالم قريش يملأ الأرض علماً».

وصف أبو زكريا السلماسي علمه فقال:

محمد بن إدريس الشافعي جمع أشتات الفضائل، ونظم أفراد المناقب، وبلغ في الدين والعلم أعلى المراتب، إن دُكر التفسير فهو إمامه، أو الفقه ففي يديه زمانه، أو الحديث فله نقضه وإبرامه، أو الأصول فله فيها الفصوص والفصول، أو الأدب وما يتعاطاه من العربية العرب فهو مبدية ومعينه، ومعطيه ومفيده، وجهه للصباحة، ويده للسماحة، ورأيه للرجاحة، ولسانه للفصاحة، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، والمصباح الزاهر في الظلمة، في التفسير ابن عباس، وفي الحديث ابن عمر، وفي الفقه معاذ، وفي القضاء علي، وفي الفرائض زيد، وفي القراءات أبيّ، وفي الشعر حسان، وفي كلامه بين الحق والباطل فرقان

ولد الشافعي بغزة عام 150 هـ، وانتقلت به أمّه إلى مكة وعمره سنتان، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، ثم أخذ يطلب العلم في مكة حتى أذن له بالفتيا وهو ابن دون عشرين سنة هاجر الشافعي إلى المدينة المنورة طلباً للعلم عند الإمام مالك بن أنس، ثم ارتحل إلى اليمن وعمل فيها، ثم ارتحل إلى بغداد سنة 184 هـ، فطلب العلم فيها عند القاضي محمد بن الحسن الشيباني، وأخذ يدرس المذهب الحنفي، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز (المذهب المالكي) وفقه العراق (المذهب الحنفي). عاد الشافعي إلى مكة وأقام فيها تسع سنوات تقريباً، وأخذ يُلقي دروسه في الحرم المكي، ثم سافر إلى بغداد للمرة الثانية، فقدمها سنة 195 هـ، وقام بتأليف كتاب الرسالة الذي وضع به الأساس لعلم أصول الفقه، ثم سافر إلى مصر سنة 199 هـ. وفي مصر، أعاد الشافعي تصنيف كتاب الرسالة الذي كتبه للمرة الأولى في بغداد، كما أخذ ينشر مذهبه الجديد، ويجادل مخالفيه، ويعلم طلاب العلم، حتى توفي في مصر سنة 204 هـ.

نشأ الشافعي من أسرة فقيرة كانت تعيش في فلسطين، وكانت مقيمة بالأحياء اليمنية منها، وقد مات أبوه وهو صغير، فانتقلت أمّه به إلى مكة خشية أن يضيع نسبه الشريف، وقد كان عمره سنتين عندما انتقلت به أمه إلى مكة، وذلك ليقيم بين ذويه، ويتثقف بثقافتهم، ويعيش بينهم، ويكون منهم

عاش الشافعي في مكة عيشة اليتامى الفقراء، مع أن نسبه كان رفيعاً شريفاً، بل هو أشرف الأنساب عند المسلمين، ولكنه عاش عيشة الفقراء إلى أن استقام عودّه، وقد كان لذلك أثرٌ عظيمٌ في حياته وأخلاقه

لقد حفظ الشافعي القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، مما يدل على ذكائه وقوة حفظه، ثم اتجه إلى حفظ الحديث النبوي، فحفظ موطأ الإمام مالك، قال الشافعي: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين».

وكان الشافعي يستمع إلى المحدثين، فيحفظ الحديث بالسمع، ثم يكتبه على الخزف أو الجلود، وكان يذهب إلى الديوان يستوعب الظهور ليكتب عليها، والظهور هي الأوراق التي كُتبت في باطنها ووترها أبيض، وذلك يدل على أنه أحب العلم منذ نعومة أظفاره قال الشافعي: «لم يكن لي مال، فكنت أطلب العلم في الحدائث، أذهب إلى الديوان أستوهب منهم الظهور وأكتب فيها»، وقال: «طلبت هذا الأمر عن خفة ذات اليد، كنت أجالس الناس وأتحفظ، ثم اشتهيت أن أدون، وكان منزلنا بمكة بقرب شعب الخيف، فكنت أخذ العظام

والأكتاف فأكتب فيها، حتى امتلأ في دارنا من ذلك حبان».

وروي عنه أيضاً أنه قال: «كنت يتيماً في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي من أمي أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، وكنت أجالس العلماء، فأحفظ الحديث أو المسألة، وكان منزلنا بمكة في شعب الخيف، فكنت أنظر إلى العظم فأكتب فيه الحديث أو المسألة، وكانت لنا جرة عظيمة، إذا امتلأ العظم طرحته في الجرة».

رحلاته

لما انتشر اسم إمام المدينة مالك بن أنس في الآفاق، وتناقضت الركبان، وبلغ مبلغاً عظيماً في العلم والحديث، سمت همة الشافعي إلى الهجرة إلى المدينة المنورة في طلب العلم

ومما روي عن الشافعي في هذا المقام أنه قال: «فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة، لا نبات بعارضي من الأبطح إلى ذي طوى، فرأيت ركباً فحملني شيخ منهم إلى المدينة، فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة، ودخلت المدينة يوم الثامن بعد صلاة العصر، فصلبت العصر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذت بقبره، فرأيت مالك بن أنس رحمه الله متزراً ببردة متشجراً بأخري، يقول: «حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر»، يضرب بيده قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأيت ذلك هبتته الهيبة العظيمة».

وذهب الشافعي إلى الإمام مالك، فلما رآه الإمام مالك قال له:

محمد بن إدريس الشافعي يا محمد اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، إن الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بالمعصية محمد بن إدريس الشافعي
ثم قال له: «إذا ما جاء الغد تجيء ويجيء ما يقرأ لك». يقول الشافعي: «فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأ ظاهراً، والكتاب في يدي، فكلما تهيبت مالكا وأردت أن أقطع، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي، فيقول: «يا فتى زد»، حتى قرأته عليه في أيام يسيرة».

وقد روي عن الشافعي أنه قال: قدمت على مالك وقد حفظت الموطأ ظاهراً، فقلت: «إني أريد أن أسمع الموطأ منك»، فقال: «اطلب من يقرأ لك»، وكررت عليه فقلت: «لا، عليك أن تسمع قراءتي، فإن سهل عليك قرأت لنفسي»، قال: «اطلب من يقرأ لك»، وكررت عليه، فقال: «اقرأ»، فلما سمع قراءتي قال: «اقرأ»، فقرأت عليه حتى فرغت منه وحكى الإمام أحمد عن الشافعي أنه قال: «أنا قرأت على مالك وكانت تعجبه قراءتي»، قال الإمام أحمد: «لأنه كان فصيحاً»، وقال ابن كثير: «وكذلك كان حسن الصوت بتلاوة القرآن».

وفي رواية أخرى عن الشافعي أنه قال: وقدمت على مالك وقد حفظت الموطأ، فقال لي: «أحضر من يقرأ لك»، فقلت: «أنا قارئ»، فقرأت الموطأ حفظاً، فقال: «إن يك أحدٌ يفلح فهذا الغلام».

وبعد أن روى الشافعي عن الإمام مالك موطأه لزمه يتفقه عليه، ويدارسه المسائل التي يفتي فيها الإمام، إلى أن مات الإمام سنة 179 هـ، وقد بلغ الشافعي شرح الشباب، ويظهر أنه مع ملازمته للإمام مالك كان يقوم برحلات في البلاد الإسلامية يستفيد منها، ويتعلم أحوال الناس وأخبارهم، وكان يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها

لما مات الإمام مالك، وأحس الشافعي أنه نال من العلم أضراراً، وكان إلى ذلك الوقت فقيراً، اتجهت نفسه إلى عمل يكتسب منه ما يدفع حاجته، ويمنع خصامته، وصادف في ذلك الوقت أن قدم إلى مكة المكرمة والى اليمن

لما نزل الشافعي باليمن، ومن أعمالها نجران، كان بها وال ظالم، فكان الشافعي يأخذ على يديه، أي ينصحه وينهاه، ويمنع مظلومه أن تصل إلى من تحت ولايته، وربما نال الشافعي ذلك الوالي بالنقد، فأخذ ذلك الوالي يكيد له بالدس والسعاية والوشاية وفي ذلك الزمان الذي كان فيه الحكم للعباسيين، كان العباسيون يُعادون خصوصهم العلويين، لأنهم يُدلون بمثل نسبهم، ولهم من رحم الرسول محمد ما ليس لهم، فإذا كانت دولة العباسيين قامت على النسب، فأولئك يمتنون بمثله، وبرحم أقرب، ولذا كانوا إذا رأوا دعوة علوية قضا عليها وهي في مهدها، ويقتلون في ذلك على الشبهة لا على الجزم واليقين، إذ يرون أن قتل بريء يستقيم به الأمر لهم، أولى من ترك مُثْمَمٍ يَجُوزُ أَنْ يُفْسِدَ الْأَمْنَ عَلَيْهِمْ [38]

جاء والي نجران العباسيين من هذه الناحية، واتهم الشافعي بأنه مع العلوية، فأرسل إلى الخليفة هارون الرشيد: «إن تسعة من العلوية تحركوا»، ثم قال في كتابه: «إني أخاف أن يخرجوا، وإن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي»، وقيل أنه قال في الشافعي: «يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه»، فأرسل الرشيد أن يحضر أولئك التسعة من العلوية ومعهم الشافعي ويقال أنه قتل التسعة، ونجا الشافعي؛ بقوة حجته، وشهادة القاضي محمد بن الحسن الشيباني، أما قوة حجته فكانت بقوله للرشيد وقد وجه إليه التهمة بين النطع والسيف: «يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عيده، أيهما أحب إلي؟»، قال: «الذي يراك أخاه»، قال: «فذاك أنت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم».

وأما شهادة محمد بن الحسن الشيباني فذلك لأن الشافعي استأنس لما رآه في مجلس الرشيد عند الاتهام، فذكر بعد أن ساق ما ساق أن له حظاً من العلم والفقه، وأن القاضي محمداً بن الحسن يعرف ذلك، فسأل الرشيد محمداً، فقال: «له من العلم حظٌ كبير، وليس الذي رُفِعَ عليه من شأنه»، قال: «فخذة إليك حتى انظر في أمره»، وبهذا نجا

كان قدوم الشافعي بغداد في هذه المحنة سنة 184 هـ، أي وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، فكانت هذه المحنة خيراً له، فقد وجّهته إلى العلم بدل الولاية وتدبير شؤون السلطان، ذلك بأنه نزل عند محمد بن الحسن، وكان من قبل يسمع باسمه وفقهه، وأنه حامل

فقه العراقيين وناشره، وربما التقى به من قبله أخذ الشافعي يدرس فقه العراقيين، فقرأ كتب الإمام محمد وتلقاها عليه، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق، اجتمع له الفقه الذي يغلب عليه النقل، والفقه الذي يغلب عليه العقل، وتخرج بذلك على كبار الفقهاء في زمانه، ولقد قال في ذلك ابن حجر: «انتهدت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك بن أنس، فرحل إليه ولازمه وأخذ عنه، وانتهدت رياسة الفقه في العراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حملاً، ليس فيه شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك حتى أطل الأصول، وقعد القواعد، وأدعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره، وعلا ذكره، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار».

وقد كان الشافعي يلزم حلقة محمد بن الحسن الشيباني، قال الشافعي: «أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين ديناراً، ثم تدبرتها، فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثاً (يعني: رداً عليه)»، ولكنه كان مع ذلك يعتبر نفسه من صحابة مالك، ومن فقهاء مذهبه، وحملة موطأه، يحامي عليه ويذبح عنه ويدافع عن فقه أهل المدينة، ولذلك كان إذا قام محمد بن الحسن ناظر أصحابه، ودافع عن فقه الحجازيين وطريقتهم، قال الشافعي: «...وكان محمد بن الحسن جيد المنزلة، فاختلفت إليه وقلت: هذا أشبه لي من طريق العلم، فلزمته، وكتبت كتبه، وعرفت قولهم، وكان إذا قام ناظر أصحابه»، ولعله كان لا يناظر محمداً نفسه إغظماً لمكان الأستاذ، ولكن محمداً بلغه أنه يناظر أصحابه، فطلب منه أن يناظره، فاستحيا وامتنع، وأصر محمد، فناظره مستكراً في مسألة كثر استنكار أهل العراق فيها لرأي أهل الحجاز، وهي "مسألة الشاهد واليمين"، فناقش الشافعي محمداً فيها، ويقول الرواة من الشافعية أن الفلح كان للشافعي

عودته إلى مكة ووضع أصول الفقه

أقام الشافعي في بغداد تلميذاً لابن حسن، ومناظراً له ولأصحابه على أنه فقيه مدني من أصحاب مالك، ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة، ومعه من كتب العراقيين جعل بغير، ولم يذكر أكثر الرواة مدة إقامته في بغداد في هذه المقدمة، ولا بد أنه أقام مدة معقولة تكفي للتخرج على أهل الرأي ومدارسهم، ولعلها كانت نحو سنتين

عاد الشافعي إلى مكة، وأخذ يلقي دروسه في الحرم المكي، والتقى به أكبر العلماء في موسم الحج، واستمعوا إليه، وفي هذا الوقت التقى به أحمد بن حنبل، وقد أخذت شخصية الشافعي تظهر بفقه جديد، لا هو فقه أهل المدينة وحدهم، ولا فقه أهل العراق وحدهم، بل هو مزيج منهما وخلاصة عقل الشافعي الذي أنضج علم الكتاب والسنة، وعلم العربية وأخبار الناس والقياس والرأي، ولذلك كان من يلتقي به من العلماء يرى فيه عالماً هو نسيج وحده

أقام الشافعي بمكة في هذه المقدمة نحواً من تسع سنوات، ولا بد أن الشافعي بعد أن رأى نوعين مختلفين من الفقه، وبعد أن ناظر وجد أنه لا بد من وضع مقاييس لمعرفة الحق من الباطل، أو على الأقل لمعرفة ما هو أقرب للحق، فإنه ليس من المعقول بعد أن شاهد وعاین ما بين نظر الحجازيين والعراقيين من اختلاف، ولأصحاب النظرين مكاناً من احترامه وتقديره، أن يحكم ببطلان أحد النظرين جملةً من غير ميزان ضابط دقيق، لهذا فكر في استخراج قواعد الاستنباط، فتوافر على الكتاب يعرف طرق دلالاته، وعلى الأحكام يعرف ناسخها ومنسوخها، وخصائص كل منهما، وعلى السنة يعرف مكانها من علم الشريعة، ومعرفة صحيحها وسقيمها، وطرق الاستدلال بها، ومقامها من القرآن الكريم، ثم كيف يستخرج الأحكام إذا لم يكن كتاب ولا سنة، وما ضوابط الاجتهاد في هذا المقام، وما الحدود التي ترسم للمجتهد فلا يعدوها، ليأمن من شطط الاجتهاد لأجل هذا طال مقامه، مع أنه كان صاحب سفر، فهو لا بد في هذه الأثناء قد انتهى إلى وضع أصول الاستنباط وخرج بها على الناس، ولعله عندما انتهى إلى قدر يصح إخراجها وعرضها للجمهور من الفقهاء، سافر إلى بغداد التي كانت عش الفقهاء جميعاً، إذ صوّل أمر المدينة بعد وفاة الإمام مالك، وبعد أن صار ببغداد أهل الرأي وأهل الحديث معاً

رحلته الثانية إلى بغداد

كتاب الرسالة: أول كتاب صنف في أصول الفقه، كتبه الشافعي مرتين، الأولى في بغداد، والثانية في مصر

قدم الشافعي ببغداد للمرة الثانية في سنة 195 هـ، وقد قدم وله طريقة في الفقه لم يسبق بها، وجاء وهو لا ينظر إلى الفروع بفصل أحكامها وإلى المسائل الجزئية يفتي فيها فقط، بل جاء وهو يعمل قواعد كلية، أطل أصولها، وضبط بها المسائل الجزئية، فقد جاء إذن بالفقه عالماً كلياً لا فروعاً جزئية، وقواعد عامة لا فتاوى وأفضية خاصة، فرأت فيه ببغداد ذلك، فانسال عليه العلماء والمتفقهون، وطلبه المحدثون وأهل الرأي جميعاً وفي هذه المقدمة ذكر أنه ألف لأول مرة من كتاب الرسالة الذي وضع به الأساس لعلم أصول الفقه وقد روي أن عبد الرحمن بن مهدي التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي كتاب الرسالة وبعثه إليه، فلما قرأه عبد الرحمن بن مهدي قال: «ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل»، وقيل أن الشافعي قد صنف كتاب الرسالة وهو ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة [47]

أخذ الشافعي ينشر بالعراق تلك الطريقة الجديدة التي استنتها، ويجادل على أساسها، وينقد مسائل العلم على أصولها، ويؤلف الكتب وينشر الرسائل، ويتخرج عليه رجال الفقه، ومكث في هذه المقدمة سنتين، ثم عاد بعد ذلك إليها سنة 198 هـ وأقام أشهراً فيها، ثم اعترم السفر إلى مصر، فرحل إليها، وقد وصل سنة 199 هـ.

أما سبب تقصيره الإقامة في بغداد في هذه المقدمة الأخيرة، مع أنها كانت عش العلماء، وقد صار له بها تلاميذ ومريدون، والعلم ينتشر بين ربوعها، ولم يكن لمصر في ذلك الوقت مكانة علمية كمكانة بغداد أو تقاربها، فهو أنه في سنة 198 هـ كانت الخلافة لعبد الله المأمون، وفي عهد المأمون ساد أمر لا يستطيع الشافعي الإقامة في ظله، وهو أن المأمون كان من الفلاسفة المتكلمين، فأندى إليه المعتزلة، وجعل منهم كُتَّابَه وحجَّابَه وجلساءه، والمقرَّبين إليه الأذنين، والمحكِّمين في العلم وأهله، والشافعي كان ينفر من المعتزلة ومناهج بحثهم، ويفرض عقوبة على بعض من يخوض مثل خوضهم، ويتكلم في العقائد على طريقتهم، فما كان لمثل الشافعي أن يرضى

بالمقام معهم، وتحت ظل الخليفة الذي مَنَّ لهم، حتى أذاه الأمر بعد ذلك إلى أن أنزل بالفقهاء والمحدثين المحنة التي تسمى محنة خلق القرآن، وروي أن المأمون عرض على الشافعي أن يوليئه القضاء، فاعتذر الشافعي

رحلته إلى مصر

لم يَطِبْ للشافعي المقام ببغداد، وكان لا بد من الرحيل منها، ولم يجد مهاجراً ولا تبعاً إلا في مصر، ذلك أن واليها عباسي هاشمي قرشي، قال بإقوت الحموي: «وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن عباس دعاه، وكان العباس هذا خليفة لعبد الله المأمون على مصر». ولقد قال الشافعي عندما أراد السفر إلى مصر:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامة والفقر
فوالله ما أدري، الفوق والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر
قدم الشافعي مصر سنة 199 هـ، ومات فيها سنة 204 هـ، وقد روي عن الربيع بن سليمان أنه قال: وقال لي يوماً (يقصد الشافعي):
«كيف تركت أهل مصر؟»، فقلت: «تركتهم على ضربين: فرقة منهم قد مالت إلى قول مالك، وأخذت به واعتمدت عليه وذبت عنه وناضلت عنه، وفرقة قد مالت إلى قول أبي حنيفة، فأخذت به وناضلت عنه»، فقال: «أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله، وآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعاً». قال الربيع: «ففعل ذلك والله حين دخل مصر».

ولما قدم الشافعي مصر نزل على أخواله الأزدي، قال ياسين بن عبد الواحد: لما قدم علينا الشافعي مصر، أتاه جدِّي وأنا معه فسأله أن ينزل عليه، فأبى وقال: «إني أريد أن أنزل على أخوالي الأزدي»، فنزل عليهم وقد ذكر الإمام أحمد أن الشافعي قصد من نزوله على أخواله متابعة السنة فيما فعل النبي حين قدم المدينة من النزول على أخواله، فقد نزل النبي حين قدم المدينة على بني النجار، وهم أخوال عبد المطلب

وقال هارون بن سعد الأيلي: ما رأيت مثل الشافعي، قدم علينا مصر، فقالوا: «قدم رجلٌ من قريش»، فجنناه وهو يصلي، فما رأيت أحسن صلاةً منه، ولا أحسن وجهاً منه، فلما قضى صلاته تكلم، فما رأيت أحسن كلاماً منه، فافتتتاً به

بعد قدوم الشافعي إلى بغداد سنة 195 هـ، بل قبل ذلك في دراسته بعكة، كان صاحب طريقة جديدة في الفقه، وصاحب آراء جديدة فيه تنفصل عن آراء الإمام مالك، ولكنه لم يتجه إلى آراء مالك بنقد أو تزييف، بل كان يلقي بأرائه خالفت أو وافقت رأي مالك من غير نقد له، ولذلك كان يوجِّد من أصحاب مالك، وإن كان في جملة آراءه ما يخالفه قليلاً أو كثيراً، كما خالف بعض أصحاب مالك مالكا، وكما خالف بعض أصحاب أبي حنيفة شيخهم، ولكن حدث ما اضطر الشافعي إلى أن يتجه لآراء شيخه مالك بالنقد، ذلك أنه بلغه أن مالكا تُقدِّس آرائه وثباته في بعض البلاد الإسلامية، وأن من المسلمين أناساً يتحدث إليهم بحديث رسول الإسلام محمد، فيعارضون الحديث بقول مالك، فتقدم الشافعي الذي لقبه العلماء في عصره بناصر الحديث، ووجد طريقاً معيناً ليسلكه، وهو أن ينقد آراء مالك، ليعلم الناس أن مالكا بشرٌ يخطئ ويصيب، وأنه لا رأي له مع الحديث، فألف في ذلك كتاباً سماه "خلاف مالك"، ولكنه تردد في إعلانه وفاءً لمالك شيخه وأستاذه، والذي كان يقول عنه طوال حياته أنه الأستاذ، يتردد بين إرشاد الناس لما رآه أخطاءً لمالك، وهو يخشى على السنة من تقديس الناس له، وبين الوفاء له، فطوى الكتاب لمدة سنة وهو متردد، ثم استخار فنشره

ويروي الفخر الرازي: «أن الشافعي إنما وضع الكتاب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنوسة لمالك يُستقى بها، وكان يقال لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون قول مالك، فقال الشافعي: «إن مالكا آدمي قد يخطئ ويغلط»، فصار ذلك داعياً للشافعي إلى وضع الكتاب على مالك، وكان يقول: «كرهت أن أفعل ذلك، ولكني استخرت الله تعالى فيه سنة».

أدى نقد الشافعي للإمام مالك إلى وقوعه في المتاعب والمصاعب، وذلك لأن الإمام مالكا كان له المكان الأول بين المجتهدين في مصر، فثار على الشافعي المالكيون بنته دونه ويجرحونه ويظعنون عليه، حتى ذهب جمهورهم إلى الوالي يطلبون إخراجَه، ويقول في ذلك الرازي: «لما وضع الشافعي كتابه على مالك ذهب أصحاب مالك إلى السلطان والتمسوا منه إخراج الشافعي». ولم ينقد الشافعي آراء مالك فقط، بل نقد من قبل آراء العراقيين أبي حنيفة وأصحابه وغيرهم من فقهاء العراق، كما نقد آراء الأوزاعي، وكان لكل هؤلاء أنصار من رجال الفقه في عهده، يتعصبون لهم وينافحون عنهم، فبنقدهم انبثق على الشافعي البثق الكبير من الجدل والمناظرة، فكان يجادل ويصاول، من غير أن يمتس صاحب الرأي بسوء

كان الشافعي يعميل في جداله دائماً إلى نصره الحديث ورجال الحديث، مع علمه بالجدل وأساليبه، وقد بهت أهل الرأي في أول التقائه بهم في بغداد سنة 184 هـ، ويقول الرازي في ذلك:

الناس كانوا قبل زمان الشافعي فريقين: أصحاب الحديث وأصحاب الرأي، أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالاً أو إشكالاً سقطوا في أيديهم عاجزين متحيرين، وأما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر والجدل، إلا أنهم كانوا عاجزين عن الآثار والسنن، وأما الشافعي رضي الله عنه فكان عارفاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، محيطاً بقوانينها، وكان عارفاً بأداب النظر والجدل قوياً فيه، وكان فصيحاً الكلام، قادراً على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة، وأخذ في نصره أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من أورد عليه سؤالاً أو إشكالاً أجاب عنه بأجوبة شافية كافية، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأي على أصحاب الحديث

ولما أصل الأصول ووضع القواعد، وجد أن بعض الفقهاء من أهل الحجاز يخرج على هذه الأصول ولا يتقيد بها، ومنهم شيخه الإمام مالك، فوجده يأخذ بالأصل ويترك الفرع، ويأخذ الفرع ويترك الأصل، فجادل أهل الحجاز أيضاً، وبذلك قضى حياته كلها في نضال لأجل فقه الشريعة الإسلامية

وفاته

مات الشافعي بعصر، في آخر ليلة من رجب سنة 204 هـ، وقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً □

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري: «وُلد الشافعي سنة خمسين ومائة، ومات في آخر يوم من رجب، سنة أربع ومائتين، عاش أربعاً وخمسين سنة»، وقال الربيع بن سليمان: «توفي الشافعي ليلة الجمعة، بعد العشاء الآخرة بعدما صلى المغرب آخر يوم من رجب، ودفناه يوم الجمعة، فانصرفنا، فرأينا هلال شعبان، سنة أربع ومائتين».